

الخطاب القرآني لغير المسلمين

مفهومه وتوابعه ومقاصده

د. حسام الصيفي¹

القرآن الكريم كلام الله المعجز، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ العربي، لم يهمل الحديث عن غير المسلمين، على اختلاف معتقداتهم، بل ومخاطبتهم وتوجيه الأوامر والنهي لهم، وبين مصيرهم إذا آمنوا بالله الواحد الأحد، وكذلك بين مصيرهم إذا اصرروا على عنادهم، ولم يستجيبوا لله ولا لرسوله صلى الله عليه وسلم، بل وجادلهم بالتي هي أحسن، وأقام الحجة عليهم، ومجموع الآيات القرآنية التي جاء الخطاب فيها بقوله تعالى: (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) و(يا أيها الإنسان) و (يا أهل الكتاب) تعد محور الخطاب القرآني لغير المسلمين على وجه الخصوص. وفي هذه الورقة العلمية سأحاول التعرض لهذه القضية.

هذا، وقد قسمت الموضوع إلى المحاور التالية:

المبحث الأول: مفهوم الخطاب القرآني لغير المسلمين.

المبحث الثاني: آراء الأصوليين في مخاطبة غير المسلمين بفروع الشريعة.

المبحث الثالث: المقصد من مخاطبة غير المسلمين بفروع الشريعة.

المبحث الأول:

مفهوم الخطاب القرآني لغير المسلمين.

¹الأستاذ المشارك بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، أن الخطاب القرآني جاء للناس كافة وليس للمؤمنين به خاصة، والرسالة عالمية لكل زمان ولكل مكان ، فمنذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها الإسلام انطبع بالخصوصية العربية المحلية لتكون له عامل قوة ودفع، بعد أن يسهل تمثله والاعتقاد به، لكنه كشف في هذا الوقت المبكر عن نزوعه نحو العالمية كهدف نهائي سوف يتم بناء الشروط الموضوعية لتحقيقه. ولم يكن ذلك من باب التكتيك الإيديولوجي ، كما يدعي من يسمون الإسلام بالمحلية الضيقة المغلقة، بل نجد أن خاصية العالمية رافقت الإسلام منذ النشأة الأولى، تقرر ذلك الآيات المكية التي صدحت بذلك، والرسول الكريم (ص) لا يكاد يؤمن به أقرب المقربين إليه والدعوة في غاية الضعف .مثل قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) {الأنبياء 107} وقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا.) {سورة سبأ، الآية 28} . رغم أن العرب كانوا مادة الرسالة الأولى إلا أن ذلك لم يكن لإقليمية ضيقة ، بل لمميزات خاصة في العرب أهلتهم ليكونوا أول من تحمل الرسالة وهي صفات لم تجتمع يومئذ في غيرهم. و يفسر ابن باديس قوله تعالى «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ.. أَفَلَا تَعْقِلُونَ» ؟ بسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض وكان لها دورها في التاريخ وكان لها «وجود إنساني» ابتداء، وحضارة عالمية ثانياً.»، فأساس العالمية الإسلامية هو القرآن ، فقد« جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعا، ثم لينشئ عالماً وقيم نظاماً. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس إنما العقيدة وحدها» و«يرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده.. «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» .. وهذا النص مكى، وله دلالة على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى. لا كما يدعي أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية. فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد، ومن نهج إلى نهج. عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا، فهي عالمية للعالمين والرسول يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود»..

ومجموع الآيات القرآنية التي جاء الخطاب فيها بقوله تعالى : (يا أيها الناس) و (يا بني آدم)

و(يا أيها الإنسان) و يا أهل الكتاب) تعد محور الخطاب القرآني لغير المسلمين على وجه

الخصوص .

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } الأعراف آية (158)

. يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم «قل» يا محمد للناس كلهم: «إني رسول الله إليكم

جميعاً» لا إلى بعضكم دون بعض». وأخرج البخاري في صحيحه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه

وفيه: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة.»

فالخصوصية الحضارية الأولى لهذه الرسالة أنها عالمية².

ولكن القول بالخصوصية الحضارية الإسلامية قد يفرض على المسلمين عزلة عن العالم، والقول بعالمية

الإسلام قد يكون مدخلا لإلغاء خصوصيات الآخر إذا تمكن المسلمون من الخروج من التخلف إلى

التقدم و الريادة الحضارية. يعزز ذلك الاعتقاد الاحتراز المنهجي الذي أثاره سعيد شبار ، وهو

أن “التشديد على العالمية قد يكون على حساب الخصوصية، والتشديد على الخصوصية قد يكون على

حساب العالمية وكأن هناك تعارض بينهما يقضي أن لا يقوم أحدهما إلا على أنقاض الآخر“

والجواب كامن في عالمية الإسلام ذاتها، فعالميته ليس لها نفس دوافع و تجليات العولمة الغربية . إن الإسلام

ينظر إلى الآخر كأمة دعوة ،وعلى أمة الإجابة أن تصل إليه، متمثلة دينا مرجعه الأساسي هو القرآن

الذي من أهم خصائصه الهيمنة و التصديق، وهو “مفهوم واضح في تقرير أصل الاستمرارية والتواصل في

رسالات السماء(التصديق)، و في الاستيعاب التقويمي و التصحيحي النهائي الذي قامت به رسالة الختم

(الهيمنة)“. هو دين يستوعب الأديان كلها و الحضارات جميعها و كل الأنساق الثقافية التي كانت حال

نزوله و المستمرة حال تنزله، لأنه يستوعب الزمان و المكان و الإنسان.

إذا نظرنا إلى خاصية الاستيعاب نجدتها تتنافى مع خاصية الاستبعاد والاستبعاد التي تتسم بها

² <http://www.maghress.com/attajdid/100614>.

العولمة الغربية . و إذا أضفنا إليها خاصية التصديق، وجدنا أن كل إنسان و كل الجماعات البشرية تجد ذاتها وتاريخها و سمات حضارتها في هذا الدين، فتكون بالتالي دعوة الآخر إلى أخذ مكانه تحت ظل عالمية الرسالة الإسلامية ليس فيها إهدار لخصوصيته و هويته ، بل على العكس من ذلك هي دعوة له، في الحقيقة، إلى التمسك بأخص خصائصه ،إنسانيته و كرامته و استخلافه في الكون المسخر له . وبهذا المعنى ، لن تكون الأمة الإسلامية مسلطة على رقاب العالم تسومهم الخسف والدمار والاستعباد، بل ستلعب دور الوسطية و الشهود الحضاري الذي تنقل من خلاله الخير للعالم استجابة لأمر ربها (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله)، بدون هضم أو ظلم إذ (لا إكراه في الدين). وتاريخ عالمية الإسلام الأولى شاهد على تميز النسق الحضاري الإسلامي بعدم استعباد شعوب المناطق المفتوحة.

فالعملية وظيفة التبليغ و الشهادة المنوطة بالأمة الإسلامية ، كوعاء شرعي و تاريخي و واقعي، منطلقة من خصوصياتها الحضارية ساعية إلى إيصال خيرها للعالم و الشهادة عليه، واخترنا أن نطلق الخصوصية الحضارية عوض الثقافية درءا للتخوف المحتمل من غزو فكري لفئة ضيقة و لو كانت البادئة بنشر الرسالة. والخصوصية بهذا المعنى لن تكون رد فعل على قوة النموذج العولمي الغربي، بل هي من منطلق العالمية الإسلامية التي لا تتوخى محو الشخصية الثقافية للجميع، بل تمد يد الحوار و التعاون والتآخي للعالم أجمع، انطلاقا من خلفيات دعوية انفتاحية، من أجل التعاون على حل مشكلات الإنسان، إذ التعاون و “الإسهام في حل المشكلات العامة هو جزء من حل المشكلات الخاصة، سواء تعلق الأمر بمشكلات الإنسان أو الطبيعة أو البيئة أو غيرها³ .»

إذن القول بالعالمية الإسلامية لا ينافي الخصوصية، فإذا كانت العولمة نظاما يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى وقمع و إقصاء وتمييع الخصوصية أو الاعتداء على الآخر بسلبه خصوصيته، فإن العالمية تفتح على ما هو عالمي و كوني و كوني في التلاقح و الحوار .

³ <http://www.maghress.com/attajdid/100614>.

المبحث الثاني :

آراء الأصوليين في مخاطبة غير المسلمين بفروع الشريعة.

حصول الشرط الشرعي لا يشترط في صحة التكليف بالمشروط خلافا لأصحاب الرأي ، وهي مفروضة في تكليف الكفار بالفروع ، وإن كانت أعم منه .

وقد عبر عنها بعض الأصوليين بأنه هل يشترط التكليف في الإمكان في الجملة وهو قولنا ، أو الإمكان ناجزا وهو وقول الحنفية ؟

ثم اعلم أن المأمور به إما أن يكون مرتبا على ما قبله أو لا ، فإن كان غير مرتب وهي أصول الشريعة فهم مكلفون بها إجماعا ، ويلتحق بذلك كما قالهاالقاضي تصديق الرسل وعدم تكذيبهم ، والكف عن قتلهم وقتلهم ا هـ . مع أن الكف عن قتلهم من الفروع [4 .

وحكى المازري عن قوم من المبتدعة أن الكفار غير مخاطبين بهذه المعارف . قال : واختلفوا فمنهم من رآها ضرورية ، فلهذا لم يؤمروا بها ، ومنهم من رآها كسبية ، ولكنه منع الخطاب لما يذكر في غير هذا الفن . ا هـ .

وتردد بعض المتأخرين في كلمتي الشهادة هل هي من الفروع ؟ حتى لا يكلفوا بها على قول ، لأن الإيمان هو التصديق والشهادة شرط لصحته ، وفيه نظر .

ومقدمات الإيمان ، كالنظر هل هي ملحقة بالإيمان حتى تكون واجبة عليه أو يأتي فيه الخلاف في مقدمة الواجب ؟ فيه نظر ، وإن كان مرتبا على ما قبله ، وهي فروع الشريعة ، فالكلام في الجواز

⁴البحر المحيط ، بدر الدين بن محمد بمادر الزركشي ، دار الكتبي ، سنة النشر: 1414هـ/1994م ، رقم الطبعة: ط1 ، ص 125 .

والوقوع .

[جواز خطاب الكفار بالفروع عقلا]

أما الجواز عقلا فمحل وفاق كما قاله إلكيا الطبري ، ومراده وفاق أصحابنا ، وإلا فقد نقل عن ابن برهان في " الأوسط " عن عبد الجبار وغيره أنه لا يجوز أن يخاطبوا عقلا بالفروع ، وحكاه صاحب " كفاية الفحول في علم الأصول " من الحنفية فقال : أجازة عقلا قوم ومنعه آخرون .

[جواز خطاب الكفار بالفروع شرعا]

أما شرعا ففيه مذاهب : أحدها : أنهم مخاطبون بها مطلقا في الأوامر والنواهي بشرط تقدم [ص 126 : [الإيمان ، لقوله تعالى { : ما سللكم في سقر } الآيات ، ولأنه تعالى ذم قوم شعيب بالكفر ونقص المكيال ، وقوم لوط بالكفر وإتيان الذكور ، وذم عادا قوم هود بالكفر وشدة البطش بقوله تعالى { : وإذا بطشتم ببطشتم جبارين } ونص عليه الشافعي في مواضع : منها : تحريم ثمن الخمر عليهم ، وقال في " الأم " في باب حج الصبي يبلغ ، والمملوك يعتق ، والذمي يسلم ، فيما إذا أهل كافر بجح ، ثم جامع ، ثم أسلم قبل عرفة فجدد إحراما وأراق دما لترك الميقات أجزأته عن حجة الإسلام ، لأنه لا يكون مفسدا في حال الشرك ، لأنه كان غير محرم .

قال : فإن قال قائل : فإذا زعمت أنه كان في إحرامه غير محرم ، أفكان الفرض عنه موضوعا ؟

قيل : لا بل كان عليه وعلى كل واحد أن يؤمن بالله عز وجل ورسوله ويؤدي الفرائض التي أنزلها الله تبارك وتعالى على نبيه ، غير أن السنة تدل ، وما لم أعلم [المسلمين] اختلفوا فيه أن كل كافر أسلم ائتدفع الفرائض من يوم أسلم ، ولم يؤمر بإعادة ما فرط فيه في الشرك منها ، وأن الإسلام يهدم ما قبله إذا أسلم ثم استقام . هذا لفظه . وهو قول أكثر أصحابنا كما حكاه القاضي الطبري والماوردي وسليم الرازي في " التقريب " والشيخ أبو إسحاق والحليمي .

وقال في " المنهاج " : إنه مفرع على قولنا : إن الطاعات من الإيمان .

قال : وقد ورد في الحديث : أن رجلا قال : يا رسول الله أيؤخذ الله أحدا بما عمل في الجاهلية ؟ قال :

{ من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل [ص 127: في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر . }

قال : وهذا يدل على المؤاخذة بالنواهي إذا يحسن في الإسلام ، لانتفاء ما يحبطها بخلاف من أسلم وأحسن فإن . إسلامه يحبط كفره ، وحسناته تحبط سيئاته ومجرد الإسلام لا ينافي المعاصي لجواز صدورها من السلم فلا يكون محبطا لها . ا هـ .

وقال القاضي عبد الوهاب وأبو الوليد الباجي : إنه ظاهر مذهب مالك وكذلك نقلوه عن أحمد بن حنبل في أصح الروايتين عنه ، وهو محكي عن الكرخي والخصاص من الحنفية أيضا . وقال أبو زيد الدبوسي . إنه قول أهل الكلام ، ومذهب عامة مشايخ أهل العراق من الحنفية ، لأن الكفر رأس المعاصي فلا يستفيد به سقوط الخطاب .

والقول الثاني : أنهم غير مكلفين بالفروع وهو قول جمهور الحنفية ، وبه قال عبد

الجبار من المعتزلة والشيخ أبو حامد الإسفراييني من أصحابنا كما رأيته في كتابه . عبارته : إنه هو الصحيح عندي ، ووقع في " المنتخب " نسبه لأبي إسحاق الإسفراييني ، وهو غلط ، فإن أبا إسحاق يقول بتكليفهم كما نقله الرافعي عنه في أول كتاب الجراح وهو كذلك موجود في كتابه في الأصول : ظاهر كلام الشافعي يدل عليه ، قال : والصحيح من مذهبه : ما بدأنا به . ا هـ [ص 128 :

وقال الإيباري : إنه ظاهر مذهب مالك .

قلت : اختاره ابن خويز منداد المالكي ، وقال في كتابه المسمى " بالجامع " إنه الذي يأتي عليه

مسائل مالك أنه لا ينفذ طلاقهم ، ولا أيمانهم ولا يجري عليهم حكم من الأحكام .

وزاد حتى قال : إنهم إنما يقطعون في السرقة ، ويقتلون في الحراة من باب الدفع ، فهو تعزير لا حد ،

لأن الحدود كفارات لأهلها وليست هذه كفارات . وزاد ، فقال : إن المحدث غير مخاطب بالصلاة إلا

بعد فعل الطهارة ، واستدل على ذلك من كلام مالك رضي الله عنه بقوله في الحائض : إنها تنتظر ما

بقي من الوقت بعد غسلها وفراغها من الأمر اللازم .

وقال أبو زيد الدبوسي : ليس عن أصحابنا المتقدمين في هذه المسألة نص ، وإنما تؤخذ من فروعهم ، وقد ذكر محمد بن الحسن أن من نذر الصوم ، ثم ارتد ثم أسلم لم يلزمه قضاؤه ، لأن الشرك أبطل كل عبادة ، وإنما أراد وجوبها ، لأنه لم يؤده بعد .

قال : ولم أر لهذا المذهب حجة يعتمد عليها ، وقد تفكرت في ذلك فلم أجد إلا أن الكافر ليس بأهل للعبادة ، لأنه لا يثاب كما لم يجعل العبد أهلا لملك المال فلما لم يكن من أهل الملك لم يكن من أهل الخطاب .

وقال العالم من الحنفية : لم ينقل عن ثقة من أصحابنا نص في المسألة ، لكن المتأخرين منهم خرجوا على تفرعاتهم ، فإن محمد قال : إن الكافر إذا دخل مكة فأسلم وأحرم لم يكن عليه دم لترك الميقات ، لأنه لم يكن عليه ، [ص 129] : ولو كان للكافر عبد مسلم لا تجب عليه صدقة فطره ، ويجل للمسلم وطء زوجته النصرانية إذا خرجت من الحيض لعادتها دون العشرة قبل أن تغتسل ، ويمضي عليها وقت صلاة ، لأنه ليس عليهم .

وقال السرخسي ، لا خلاف أنهم مخاطبون بالإيمان والعقوبات والمعاملات في الدنيا والآخرة ، وأما في العبادات بالنسبة إلى الآخرة كذلك .

أما في حق وجوب الأداء في الدنيا فهو موضع الخلاف ، فذهب العراقيون من مشايخنا إلى أنهم مكلفون ، لأنه لو لم تجب لم يؤاخذوا على تركها . قال : وهذه المسألة لم ينص عليها أصحابنا ، لكن بعض المتأخرين استدلوا من مسائلهم على هذا ، وعلى الخلاف بينهم وبين الشافعي ، فإن المرتد إذا أسلم لا يجب عليه قضاء صلوات الردة خلافاً للشافعي فدل على أن المرتد غير مخاطب بالصلاة عندنا ، ثم ضعف الاستدلال . قال : ومنهم من جعل هذه المسألة فرعاً لأصل معروف بيننا وبينهم : أن الشرائع عنده من نفس الإيمان ، وهم مخاطبون بالإيمان ، فيخاطبون بالشرائع ، وعندنا ليست من نفس الإيمان فلا يخاطبون بأدائها ما لم يؤمنوا ، وهذا ضعيف ، فإنهم مخاطبون بالعقوبات والمعاملات وليس ذلك من

الإيمان .

قال ابن القشيري : والقائلون بأنهم غير مخاطبين انقسموا فمنهم من صار إلى استحالة تكليفهم عقلا ، ومنهم من لم يحله ، ولكنهم مع الجواز لم يكلفوا .

وقال القاضي : أقطع بالجواز ، ولا أقطع بأن هذا الجائز وقع ، ولكن يغلب على الظن وقوعه .

والثالث : أنهم مكلفون بالنواهي دون الأوامر ، لأن الانتهاء ممكن في [ص 130 : حالة الكفر ، ولا يشترط فيه التقرب ، فجاز التكلف بما دون الأوامر ، فإن شرطها العزيمة ، وفعل التقريب مع الجهل بالمقرب إليه محال ، فامتنع التكليف بها .

وحكى النووي هذه الثلاثة في " التحقيق " أوجها للأصحاب ، وسبق حكاية الأستاذ وابن كج الأولين قولين للشافعي ، وعلمه الشيخ أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك في كتاب " بيان البرهان " بأن العقوبات تقع عليهم في فعل المنهيات دون ترك المأمورات . ألا ترى أنهم يعاقبون على ترك الإيمان بالقتل والسي وأخذ الجزية ، ويجد في الزنا والقذف ويقطع في السرقة ، ولا يؤمر بقضاء شيء من العبادات ، وإن فعلها في كفره لم تصح منه ؟ ونقله صاحب " اللباب " من الحنفية عن أبي حنيفة وعامة أصحابه [. تكليف الكفار بالنواهي]

وذهب بعض أصحابنا إلى أنه لا خلاف في تكليفهم بالنواهي ، وإنما الخلاف في تكليفهم بالأوامر .

قاله الشيخ أبو حامد الإسفراييني في كتابه " الأصول " والبندنيجي في أول كتاب قسم الصدقات من " تعليقه " قال : وأما المعاصي فمنهون عنها بلا خلاف بين المسلمين ، وهذه طريقة جيدة⁵ .

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني في كتابه في الأصول : لا خلاف أن خطاب الزواجر من الزنا والقذف يتوجه على الكفار كما يتوجه على المسلمين . ا هـ .

وهذا يوجب التوقف فيما حكاه الرافعي عن الأستاذ أبي إسحاق فيما إذا قتل الحربي مسلما أو أتلف عليه مالا ثم أسلم أنه يجب ضمائها إذا قلنا : إن الكفار مخاطبون بالفروع . قال : وذكر العبادي أنه

⁵البحر المحيط ، بدر الدين بن محمد بمادر الزركشي ، دار الكتبي ، سنة النشر : 1414هـ / 1994م ، رقم الطبعة : ط 1 ، ص 131 .

يعزى ذلك أيضا للمزني في " المنتور " . وقال المازري : لا وجه لهذا التفضيل ، لأن النهي في الحقيقة أمر ، وكأنهم قالوا : إن التروك لا تفتقر إلى تصور بخلاف الفعل ، والرابع : أنهم مخاطبون بالأوامر فقط . حكاة ابن المرحل في " الأشباه والنظائر " ولعله انقلب مما قبله ، ويرده الإجماع السابق على تكليفهم بالنواهي .

والخامس : أن المرتد مكلف دون الكافر الأصلي . حكاة القاضي عبد الوهاب في " الملخص " والطروشني في " العمدة " ، لالتزام أحكام الإسلام . ولا معنى لهذا التفصيل ، لأن مأخذ النقي فيهما سواء ، وهو جهله بالله تعالى ، ومقتضى هذا أن الخلاف يطرق الأصل والمرتد لكن ظاهر [ص 132 : عبارة الإمام في " المحصول " أن الخلاف لا يطرق المرتد ، والأشبه الأول . ولهذا نقل الأصحاب عن الحنفية أن الردة تسقط الأعمال السابقة وتمنع الوجوب في الحال . ولهذا قالوا : إن المرتد لا يقضي صلاة أيام رده ، وعندنا تلزمه .

وقال القاضي الحسين في تعليقه " : يمكن بنا الخلاف في إحباط الردة الأعمال على أن الكفار مخاطبون بالشرائع أم لا ؟ فإن قيل : لو ساوى المرتد الأصلي لم يجب عليه قضاء أيام رده . قلت : إنما وجب القضاء على المرتد ، لأن الإسلام بخروجه منه لا يسقط بخلاف الأصلي ، وقد قال الشافعي : في الزكاة على المرتد قولان أحدهما : يجب ، والثاني موقوف . قال ابن أبي هريرة : وهو نظير الصلاة ، لأنه كما إذا أسلم يزكي فكذا إذا أسلم يصلي .

والسادس : أنهم مكلفون بما عدا الجهاد ، أما الجهاد فلا ، لامتناع قتالهم أنفسهم ، حكاة القراني . قال : ولا أعرف أين وجدته .

قلت : صرح به إمام الحرمين في " النهاية " ، فقال : والذمي ليس مخاطبا بقتال الكفار ، وكذا قال الرافعي في " كتاب السير " : الذمي ليس من أهل فرض الجهاد . ولهذا إذا استأجره الإمام على الجهاد لا يبلغ به سهم راجل على أحد الوجهين ، كالصبي والمرأة . نعم يجوز للإمام استئجاره على

الجهاد على الأصح ، وهذا يدل على أنه غير فرض عليه ، وإلا لما جاز كما لا يجوز استئجار المسلم عليه .

السابع : الوقف . حكاه سليم الرازي في تقريره " عن بعض الأشعرية ، وحكاه الشيخ أبو حامد الإسفراييني عن الأشعري نفسه [ص 133] :

وقال إمام الحرمين في " المدارك " : عزى إلى الشافعي ترديد القول في خطاب الكفار بالفروع ونصه في " الرسالة " : الأظهر أنهم مخاطبون بها .

قلت : وقد يخرج من تصرف الأصحاب في الفروع مذهب ثامن : وهو التفصيل بين الحربي فليس بمكلف دون غيره ، ولهذا يقولون في القصاص والسرقة والشرب وغير ذلك : لا يجب حدها على الحربي ، لعدم التزامه الأحكام بخلاف الذمي . وحكى الطرطوشي في " العمدة " أن الواقفية من علمائهم وافقوا على كونهم مخاطبين إلا أنهم قالوا : إن دخولهم في الخطاب لم يكن بظواهرها ، وإنما دخلوها بدليل . اهـ وبه يخرج مذهب تاسع . وقال إمام الحرمين في " التلخيص " : الصائرون إلى أنهم مخاطبون لا يدعون ذلك عقلا وجوبا بل يجوزون في حكم العقل خروجهم عن التكليف في أحكام الشرع . كيف وقد أخرج كالحائض عن التزام الصلاة والصيام ؟ ولكن هؤلاء يزعمون أن تكليفهم سائغ عقلا وترك تكليفهم جائز عقلا غير أن في أدلة السمع ما يقتضي تكليفهم ، وأما الذين صاروا إلى منع تكليفهم ، فاختلفوا ، فمنهم من صار إلى استحالته ، ومنهم من جوزه عقلا ومنع إبطال أدلة السمع بهم ⁶ .

المقصود من مخاطبة الكفار بفروع الشريعة زيادة عذابهم في الآخرة؛ لتركهم الفروع، مع عذابهم على كفرهم، وليس لهذه المسألة كبير أثر في الفروع الفقهيّة⁷.

⁶ البحر المحيط ، بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي ، دار الكتيبي ، سنة النشر : 1414 هـ / 1994 م ، رقم الطبعة : ط 1 ، ص 133 .

⁷ : <http://www.alukah.net/library/0/54850/#ixzz4Em6mQKzY>

المبحث الثالث :

المقصد من مخاطبة غير المسلمين بفروع الشريعة.

الخطاب الديني لغير المسلمين

يتوجه الإسلام بخطابه الديني إلى جميع الناس سواء كانوا أهل كتاب أو مشركين أو منكرين وغيرهم، هادفاً للآتي :

1. دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده وتنزيهه عن الشركاء والأنداد مثاله قوله تعالى : (يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) سورة البقرة 21-22

2. تحذير الناس من البغي والشرك بالله مثاله قوله تعالى : (يَأْتِيهَا النَّاسُ إِمَّا بَعِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) سورة يونس: 23

3. دعوة الناس إلى تقوى الله وتخويفهم من أهوال يوم القيامة قال تعالى : (يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) سورة الحج: 1

4. البرهنة للناس أن البعث آت لا ريب فيه (يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلٍ

الْعُمْرِ لِكَيْلًا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج:5)^[29]

وسائل الإقناع والتأثير في الخطاب الديني لغير المسلمين⁸

الإسلام دين عالمي أنزله الله تعالى للناس كافة، لهذا أمر المسلمون أن يبلغوا به كل من استطاعوا أن يبلغوه بكافة الوسائل المشروعة عبر الحوار والمجادلة أو الكتاب والمجلة والمقالة أو وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفزيون وصحافة وشبكة معلومات "انترنت" وهاتف وشريط تسجيل أو فيديو... الخ وسواء كانوا أهل الكتاب أو مشركين أو ملحدين. فقال تعالى آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ) المائدة:67، وأمر عباده المؤمنين فقال: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) التوبة:6. كما ذكر سبحانه صفات المجتمع المسلم فقال: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران:110. ومن أهم وسائل الإقناع والتأثير في خطاب غير المسلمين:

الوسيلة الأولى: الدعوة بالخلق الحسن:

أكثر الشعوب التي فتح بلادها المسلمون تحولت إلى الإسلام طواعية، دون تسجيل حالة إكراه واحدة على الدخول فيه، بل إن هذه الأمم التي دخلت هذا الدين رأيناها تسابق أهله الذين حملوه إليهم في ميادين العلم والفضل، إذ تركوا لغاتهم التي كانوا عليها وتعلموا اللغة العربية - لغة القرآن - ثم تعلموا العلوم وعلموها الناس فكان منهم اللغوي والمحدث والفقهاء والمفسر والطبيب .. فكانوا في الخير والعلم قادة. وما كان ذلك كله إلا بفضل أخلاق هؤلاء الفاتحين الجدد وما تحلوا به من صفات العدل والفضيلة والأمانة والوفاء والصدق والعفاف والاجتهاد.... الخ. وهم في ذلك متأسون برسول الله صلى الله عليه

⁸ وسائل الإقناع والتأثير في الخطاب الديني في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، د. عدنان محمود محمد الكحلوت، أستاذ الحديث الشريف وعلومه

المساعد، قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب، جامعة الأقصى.

وسلم (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) الأحزاب: 21. وهو صاحب الخلق القويم؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: "لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَمَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ ... فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا اسْتَنْتَبْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ" [30] وقد أسر المسلمون عدواً لدوداً، له معهم ثارات وبغض شديد كان زعيماً لبني حنيفة يُقَالُ لَهُ: تُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ يَوْمِينَ أَوْ ثَلَاثَةَ وَإِذَا بِصَاحِبِ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ يَقُولُ: "أَطْلُقُوا تُمَامَةَ" وفي رواية: قال له: "قد عفوت عنك يا ثمامة وأعتقتك" فَأَنْطَلَقَ ثَمَامَةَ إِلَى نَجْلِ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَأَعْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ. وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ. وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ" [31] قال ابن حجر: "في قصة ثمامة من الفوائد: أن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب" [32]

وقد أمر الله سبحانه الأنبياء بدعوة الناس إلى دينه بالكلمة الطيبة والخلق القويم مع الصبر عليهم قال سبحانه آمراً موسى وأخيه عليهما السلام: (أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) سورة طه: 43-44.

الوسيلة الثانية: الدعوة بالقول:

وتشتمل هذه الوسيلة على الحوار والجدل والمناظرة، والإذاعة والتلفزيون:

الحوار والجدل: يطلق لفظ الحوار غالباً على الجدل الذي يكون بين أهل الدين الواحد، الذين يختلفون في بعض المسائل الدينية أو بسبب بعض الشبهات، أو فيما يخص قضايا الأمة بشكل خاص والعالم من حولهم بشكل عام، فيتحاورون للوصول إلى ما يرونه صواباً.

أما الجدل فغالباً ما يطلق على ما يكون من الصراع الفكري والعقائدي بين أصحاب الأديان المختلفة، الذين يتناظرون بينهم في العقيدة، أو في النبوة، أو في صحة هذا الدين أو ذاك؟ أين نقاط

الالتقاء والاختلاف بين هذين الدينين - هذا إن كانوا أهل كتاب - أما إن كانوا مشركين أو منكرين فالغالب أن يكون الجدل حول أصل الدين، وعقيدة البعث والجزاء وأركان الإيمان... الخ.

والقرآن الكريم والسنة النبوية فيهما الحوار الإسلامي الداخلي، وفيهما كذلك مساحة كبيرة لمناقشة أهل الكتاب أو المشركين والمنكرين فيما يعتقدون أو يدعون في مجالي العقيدة والشريعة، والهدف واضح - قد ذكرناه في أهداف الخطاب القرآني لغير المسلمين. بمعنى آخر: الجدل في الإسلام هو طريقة ووسيلة للتأثير على غير المسلمين وإقناعهم بأن هذا الدين هو خاتمة الرسالات السماوية أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين وأنّ البعث حق، وأن الجنة والنار حق، وأنّ الله تعالى هو الحق وأنه صاحب الأمر والنهي والحكم في عباده في ملكوته ويوم يقوم الأشهاد، لا معبود سواه⁹.

فالجدال تعبير عن الصراع الفكري بين العقائد المختلفة، كل منها يبحث عما يؤيد صدق ما يعتقد، وزيف ما عند الآخرين. والأصل في الجدل أن يكون بهدف الوصول إلى الحق والصواب، لا أن "يتحول إلى صناعة قد يقصدها الكثيرون لذاتها، من أجل التدرّب على الأخذ والرد، والهجوم والدفاع في مجالات الصراع الفكري... ليعطل قوة خصمه، لا ليوصله إلى الحقيقة، أو ليصل معه إلى قناعة"^[33]،

وإشارة إلى هذا الأمر وجهنا الإسلام إلى الجدل الذي له ثمرة مرجوة، ونهانا في ذات الوقت عن الجدل العقيم كما في قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) النحل: 125 والمقصود مجادلة أهل الكتاب كما في قوله تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) العنكبوت: 46.. ومن السنة المشرفة نقرأ في ثنايا الحديث عن أبي أمامة قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتِ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِجًّا" فالمرء هو الجدل العقيم الذي لا ينتفع به.

ولذلك فإنّ الداعية المسلم قبل أن يشرع في مجادلة أهل الكتاب أو غيرهم عليه أن يحدد الهدف الذي على أساسه يقوم الحوار، حتى يتحقق الغاية المثمرة منه باقتناع المدعو بما ندعوه إليه أو التأثير عليه فكريباً..

⁹ http://www.palwakf.ps/conferences/researchers_09_adnan_kahlout.htm.

ماذا يريد الداعية من الحوار؟ وما هدفه؟ وما النقطة التي سينطلق منها في الحوار، وإلى أي نقطة يريد الوصول إليها؟

الشخصية أو المجموعة التي تريد مناظرتها: هل هم جادون فعلاً للوصول إلى الحقيقة وصادقون، وإن كانوا ليسوا كذلك، فهل الجمهور الذي سيشهد هذه المناظرة، هل يمكن التأثير على قناعاتهم بشكل إيجابي؟

والداعية المسلم عليه أن يتسلح بأخلاق الإسلام حتى يكون مؤثراً مقنعاً، فلا يجوز له الاستخفاف بمن يناظره أو احتقاره، ولا يلجأ إلى أسلوب التجريح الشخصي أو الإساءة للآخرين، وعليه ألا يفعل، مستهدياً في ذلك بقول رب العالمين لعباده المؤمنين (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الإسراء: 53 وأمر سبحانه نبيه موسى مخاطبة فرعون باللين فقال: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) طه: 44.

وعلى الداعية أن يخاطب في مناقشته العقل ويراعي التسلسل في الحوار، مع دعوة خصمه للاتفاق على مبادئ أساسية وعامة قبل الحوار حتى يساعده ذلك على الانتهاء سريعاً من الحوار والخروج بنتائج مرضية.

هذا هدي النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي ما كان يزيد جهل الكافرين عليه إلا حلماً، لا يسب ولا يشتم ولا يجرح مخالفه، ويناقشهم ويصبر عليهم، انظر كيف استقبل وفد نصارى نجران في المسجد ومجادلتهم له وصلاتهم في داخل المسجد إلى قبلتهم، إلى أن دعاهم للمباهلة، أو للاتفاق على أساس يقبله الجميع^[34] وانظر دعوته لليهود وجداهم العقيم له، ولما أقر له يهوديان بالنبوة دعاهما إلى الإسلام فخافا أن تقتلهما يهود^[35] وقد حاور عدي بن حاتم حتى أسلم^[36]

وفي القرآن الكريم الكثير من مناظرات الأنبياء لأقوامهم مثل مناظرة إبراهيم عليه السلام لأهله وللنمرود، ومناظرة شعيب عليه السلام لقومه... فمن يراجع قصص الأنبياء يجد فيها آداباً وأساليب ودروساً وطرقاً مختلفة للحوار والمجادلة مع المخالفين.

ولا بأس أن يستعين الداعية في معرض تأثيره على غير المسلمين بقصص الأمم السابقة ولقد أكثر القرآن الكريم من القصص وضرب المثل لما في التاريخ من دروس وعبر وعظات لها تأثيرها الكبير على النفوس - انظر فوائد المثل والقصة في القرآن، وكان الدعاة من قبل يندرون أقوامهم بما حدث للأمم من قبلهم مثل مؤمن آل فرعون: (يَأْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ* وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) سورة غافر: 28 . 31.

الإذاعة والتلفزيون: وهما من الوسائل الهامة في وقتنا المعاصر إذ يستطيع الداعية أن يبلغ بصوته وصورته إلى بلاد من العسير عليه أن يبلغها إلا بشق النفوس، ويستطيع أن يخاطب جميع الطوائف والجماعات البشرية، وأن يوضح لهم أصول العقيدة وأخلاق الإسلام، ومعاني القرآن.. غير أن على المسلمين أن يجيدوا استخدام المحطات الإذاعية والتلفزيونية للوصول إلى جميع الناس، وعلى المسلمين كذلك أن يخاطبوا الناس بلغاتهم كل ذلك حتى يعذروا أمام عزّ وجل بأنهم فعلوا وسعهم في تبليغ دعوة الله تعالى؛ من خلال الكلمة الطيبة والأنشودة وحتى التمثيلية الهادفة التي أعدت إعداداً جيداً، إذ لا يشك راشد معاصر اليوم ما لوسائل الإعلام عامة والإذاعة والتلفزيون بشكل خاص من أثر بالغ على قناعات الناس وسلوكهم وأخلاقهم بل وطريقة حياتهم مما هو واقع مشاهد¹⁰.

وقد نضيف إلى ما تقدم من وسائل قولية أخرى مؤثرة مثل شريط الفيديو والشريط المسجل..

الوسيلة الثالثة: الدعوة بالكتابة:

أهم أساليب الدعوة الكتابية اليوم المقال والمجلة وشبكة المعلومات "الانترنت".

¹⁰ وسائل الإقناع والتأثير في الخطاب الديني في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، د. عدنان محمود محمد الكحلوت، أستاذ الحديث الشريف وعلومه المساعد، قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب، جامعة الأقصى.

الكتاب: يستطيع فيه الداعية أن يتناول مواضيع الإسلام المختلفة بشكل مفصل مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وشبهات المبطلين على الإسلام وبيانها والردود عليها، كما يستطيع الكتاب أن يبرز معالم الإسلام وهديه في جوانبه العقائدية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية، والسياسية وفي العبادات ... الخ الأمر الذي يجعل الكتاب من الوسائل الدعوية المؤثرة التي نستطيع به أن ندخل بيوتاً كثيرة، وأن نعمل على أن يكون في متناول أكبر شريحة ممكنة من الناس غير المسلمين.

والمقال والمجلة والنشرة الموجهة يتناول فيها الداعية موضوعاً من مواضيع الإسلام المختلفة لبيئه للناس، أو ليوضح بعض معالمه التي تم جمهور المخاطبين. وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسائل وسيلة لتبليغ الدعوة إلى الإسلامية لكسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس والبحرين وعمان... الخ^[37] وهي وسيلة استخدمها سليمان عليه السلام في بلقيس ورعيتهما إلى الإسلام إذ قال للهدهد: (أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) النمل: 28.

أما **شبكة المعلومات** فلها شأن عظيم لو أحسن الداعية استخدامها في مخاطبة كل الناس إذ يستطيع وهو في بيته اليوم أن يتحدث مع كل الأجناس البشرية، وأن يناقشهم، وأن يدعوهم ويرد على أسئلتهم، مما يؤدي إلى التأثير فيهم؛ خاصة إذا علمنا أن غالبية جمهور شبكة المعلومات هم من فئة الشباب الذين يتميزون دائماً بتقبل الرأي الآخر والتأثر به إلى حد الاقتناع إن وجد الكلمة الطيبة والهادفة البعيدة عن التشنج والعصبية مع الأسلوب العلمي الرصين¹¹.

معنى الإحسان إلى أهل الذمة

يقول القراني في معنى الإحسان إلى أهل الذمة: الرفق بدعوتهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل التلطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته رفقاً بهم؛ بشرط ألا يكون ذلك عن مذلة أو عن ضعف، لكن عن قوة واقتدار على تأديبه. ثم يقول: واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً مما بهم لا

¹¹ http://www.palwakf.ps/conferences/researchers_09_adnan_kahloot.htm.

خوفاً منهم، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ حرمتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وأعيانهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم، هذه وصايا الإسلام في أهل الذمة.

كيفية مجادلة أهل الكتاب وضوابطها

يقول الله عز وجل: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ [العنكبوت:46] يقول القرطبي: قوله: (إلا بالتي هي أحسن) أي: بالجميل من القول، إذا تناقشتم معه فتناقشوا بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته والتنبية على حججه، وهذا في الحقيقة قول مهم جداً؛ لأن أحسن القول هو كلام الله كما جاء في الحديث: (أحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم) فإذا كنا نجادهم بالتي هي أحسن فنستحضر أحسن الحديث الذي هو القرآن، بعض الناس يقول: كيف نخاطب الكفار والمشركين بالقرآن وهم لم يؤمنوا به؟ نقول: نعم نخاطبهم به كما خاطبهم به النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يرتعشون أحياناً خوفاً من العذاب الذي تنذرهم به آيات القرآن، فقد كانت تنزل على قلوبهم كالصاعقة؛ لما للقرآن من سلطان على النفوس. إذًا: فأول ما ينبغي الاهتمام به إقامة الحجة على الكافر بتلاوة كلام الله عز وجل الحق وقرآنه المجيد، ومن الخطأ الانصراف عن أحسن الكلام إلى ما عداه من كلام البشر، والزهد في الاستدلال بآيات القرآن عند مخاطبة الكفار بحجة أنهم لم يسلموا بعد، علينا أن نخاطبهم بآيات القرآن، إنما أنزلت لإندارهم وإقامة الحجة عليهم؛ لما للقرآن من سلطان خفي مع الكفار، فنجد الواحد منهم إذا سمع القرآن تملكته الهيبة والرعدة ويقول: هذا الكلام ليس بكلام مخلوق. ما سر سلطانه وقوته؟ إنه يعطي صورة حية مع المسلمين الأعاجم كالهنود والباكستانيين، فالشعب الباكستاني يعتبر من أكثر الشعوب الإسلامية عاطفة دينية وحمية للإسلام، وكذلك عاطفة الهنود المسلمين، فتجد أحدهم يمسك القرآن وينظر فيه وهو لا يعرف حرفاً واحداً من اللغة العربية، ولا يستطيع القراءة، سوى أنه يمسك القرآن ويكي ويضمه إليه ويقول: كلام ربي كلام ربي! وحدثني أحد الإخوة عن واحد من هؤلاء الأعاجم -وهو كردي- كان في مجلس

فيه بعض الشيوخ، وفي أثناء حديثهم يأتي ذكر أبي هريرة فإذا ذُكِرَ أبو هريرة خاض في البكاء الشديد، مجرد أن يسمع ذكر أبي هريرة يبكي، ما أقسى قلوبنا، هذا الرجل يرق قلبه لذكر اسم الصحابي أبي هريرة راوية الإسلام، وحامل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فكيف سيكون حاله إذا سمع حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام أو كلام الله عز وجل!! حكى لي أحد إخواننا أن مجموعة من الكفار السواح مروا بأحد المحلات بعد العصر، وكان صاحب المحل فاتحاً لإذاعة القرآن الكريم، والشيخ يقرأ بترتيل، فوقف هؤلاء السواح مشدوهين منجذبين بشدة إلى هذا الكلام، وعبروا عنه تعبيراً له دلالة، قالوا بالإنجليزي: هذا موسيقى! فقد لفت نظرهم هذا الوقع الجميل للقرآن الكريم. الشاهد: أن القرآن له وقع على القلوب نحن لا نستطيع بأن نصفه، لكننا نحس بأثره حتى مع الكافر. فالقرآن له سلطان على قلبك، ونجد كذلك كثيراً من النصارى إذا تليت عليهم آيات من القرآن لا يقوون على الطعن في القرآن الكريم، خاصة النصارى الذين عاشوا مع المسلمين؛ لأنهم عرفوا حقيقة القرآن، بخلاف إخوانهم من الكفار في البلاد البعيدة، فمن رحمة الله عز وجل أن عاشوا في وسط المسلمين، فصاروا أقرب للدخول في الإسلام، فتجد النصراني الذي يعيش في أوساط المسلمين يقول: أنا أقر أن القرآن كلام الله لكن محمد هو نذير إلى العرب خاصة؛ حتى يسوغ لنفسه عدم الدخول في الإسلام، فهذا أقصى ما يصل إليه كثير من النصارى؛ لأنه لا يملك أن يكذب محمداً عليه الصلاة والسلام أبداً ولا يكذب القرآن؛ لأنه عاش مع القرآن، وقد سمعنا كثيراً من الكفار أسلموا منذ زمن بسبب صوت الشيخ محمد رفعت رحمه الله، بغض النظر عن الطريقة في التلاوة ففيها نظر، لكن هذا له دلالة على أن إسلامهم كان بسبب سماع القرآن من بعض الشيوخ الذين يقرءون بخشوع وبصوت حسن؛ فيؤدي ذلك إلى دخول الكثير في الإسلام. إذاً: ينبغي أن نقدم كلام الله على ما عداه من الكلام عندما ندعو غير المسلمين إلى الإسلام، ولا نصغي ولا نلتفت إلى هؤلاء الذين يقولون: كيف نقرأ لهم القرآن وهم لم يؤمنوا بأنه كلام الله؟ نقول: وإن لم يؤمنوا فمن باب إقامة الحجة عليهم بكلام الله فإنه أحسن الحديث. فينبغي أن نتذكر ذلك إذا تلونا قوله عز وجل: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [العنكبوت: 46]، فأولى الكلام الحسن في ذلك هو كلام الله عز وجل. وقوله: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ [العنكبوت: 46] أي: الذين

امتنعوا عن أداء الجزية، ورفضوا أن يدخلوا الإسلام، وأصرروا على نصب الحرب ضد المسلمين، فهؤلاء ليس لهم هذه الحقوق كما ذكرنا¹².

مشروعية البر والإحسان إلى المسالمين من غير المسلمين

ومن مظاهر سماحة الإسلام: مشروعية البر والإحسان إلى المسلمين من الكفار، فالإسلام حث على البر والإحسان وبذل المعروف والنصح لجميع الناس، إلا من حارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتربص بالمسلمين الدوائر، وهؤلاء هم الذين يسمون بالحريين، فمن لم يكونوا حريين يجوز أن يبروا وأن يسالموا؛ لأن الإسلام لا يمانع من برهم والعطف عليهم ما داموا مسلمين مواعدين، كحال أهل الذمة الذين لهم عهد مع الخليفة أو الحاكم المسلم، فتراعى ذمتهم ويحسن إليهم، كذلك أيضاً أهل الصلح ونحوهم، يقول تبارك وتعالى: لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المتحنة: 8-9]. يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بذلك: لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ [المتحنة: 8] من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم؛ لأن الله عز وجل عمهم في الحكم، وذلك بقوله: الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ [المتحنة: 8] لأن (الذين) اسم موصول يفيد العموم، فتعم جميع من كانت تلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. ويقول الشوكاني أيضاً حول هذه الآية: ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى ألا يظاهروا الكفار عليهم. وخلاصة الكلام: أن الإحسان وحسن الخلق وبذل المعروف مرغّب فيه لكل أحد ولو كان لغير المسلمين، يقول ابن المرتضى اليميني: المخالفة والمنافعة وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ونحو ذلك يستحب بذله لجميع الخلق، إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذمة، فلا يبذل للعدو في حال الحرب. يعني: إظهار المودة للكافر الحربي مما

¹²أدب التعامل مع الكفار / محمد إسماعيل المقدم

يجعلك في صورة المتذلل له المضطهد له حتى لا يؤذيك، أو يؤدي إلى نوع من الاعتزاز على المسلم، فمثل هذا لا يشرع، لكن فيما عدا ذلك كما أشرنا من قبل أن التسامح الإسلامي هو تسامح القوي، ورحمة الإسلام رحمة العزيز بلا ذل ولا هوان. إذاً: حسن الخلق مطلوب مع كل الناس، بعض الناس يتكلف إساءة الخلق مع الكافر غير الحربي، يظن أن هذا هو حقيقة الولاء والبراء، لكن إذا تأملنا موقف موسى عليه السلام من فرعون، وفرعون لا يرتاب أحد في أنه من أشد الناس كفراً، وأنه قال: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي [القصص:38] وقال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [النازعات:24] ومع ذلك أمر الله عز وجل موسى وهارون أن يقولوا له قولاً ليناً قال عز وجل: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [طه:44]، فالإلانة القول وحسن الأسلوب في الكلام والأدب وحسن الخلق هذا مرغوب مع كل أحد. أقول: وهذا القيد الذي ذكره ابن المرتضى قيد في محله، ففعل البر كله لا بد أن يكون من يد علياً عزيزة، فإذا كان يفضي إلى ذل واستكانة فلا ينبغي فعله لغير المسلم.....¹³

البر والإحسان إلى الأقارب إذا كانوا غير مسلمين

إن من أهم الذين يتعين برهم والإحسان إليهم من غير المسلمين هم الوالدان، ثم الأقربون على حسب درجات قربهم، يقول الله عز وجل مقررراً حق الوالد المشرك: وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا [لقمان:15] وإن كان هذا الوالد المشرك لم يكتف بكونه مشركاً، ولم يكتف بدعوة ابنه إلى الشرك فقط؛ بل إنه يجاهده حتى يشرك بالله، ومع ذلك حفظ الله لهذين الأبوين الكافرين حقهما: وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا [لقمان:15]، وهذا فيه تعظيم شديد جداً لحق الوالدين المسلمين، فإذا كان هذا مع الكافر فكيف بالوالدين المسلمين؟! وقد ثبت عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (قدمت أمي علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم، صلي أمك) (قدمت أمي علي راغبة) أي: ترغب صلتني، أو ترغب أن تسألني شيئاً من المال، فأم أسماء غير أم عائشة رضي الله عنها، فأم أسماء هي قتيلة، قدمت من مكة إلى المدينة حتى تصل بنتها. قولها: (راغبة) إما في الصلة أو في أن تسألها شيئاً، (أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك)، فصلة الرحم هدف متفق عليه، وصله الرحم مأمور بها لكل الأقارب أيضاً، وإن كانوا غير الأبوين، كما قال الله عز وجل: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

¹³ <http://www.anasalafy.com/play.php?catsmktba=55472>

تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ [النساء: 1] أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، هذا هو المقصود من قوله: (واتقوا الله الذي تساءلون به) حين يقول أحدكم للآخر: أسألك بالله أو أسألك بوجه الله. قال ابن العربي رحمه الله تعالى: واتفقت الملة أن صلة ذوي الأرحام واجبة، وأن قطيعتها محرمة، ولتأكيد صلة الرحم المؤمنة ذكر الفضل في صلة الرحم الكافرة، وهذا يسمى: قياس الأولى أو القياس الجلي، إذا كان هذا في حق الرحم الكافرة فأولى أن يكون الصلة في حق الرحم المؤمنة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم سألها ببلالها) أي: أصلها بصلتها، مع أن هؤلاء من أقرابه، لكن لا يعدهم له أولياء، وإنما يصلهم لأجل صلة الرحم فقط. فصلة الرحم من أبرز جوانب البر والإحسان المقدمة لغير المسلمين، لكن بشرط أن لا يكون الأب أو الأم أو الرحم محارباً لدين الإسلام، معارضاً محاداً لله ورسوله وللمؤمنين، فمثل هذا لا يلزم بره ولا صلته.

حسن الجوار مع غير المسلمين

أما موضوع حقوق الجار فهو موضوع مستقل بذاته، والأدلة فيه كثيرة جداً، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) أي من شدة حق الجار ووجوب حفظ حقه. فحسن الجوار من علامات الإيمان أو من شعب الإيمان بالله واليوم الآخر، وجاء في الأثر: أن عبد الله بن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهما دخل بيته فوجد أهل بيته قد ذبحوا ذبيحة، فسألهم: هل أعطيتهم جارنا اليهودي؟ تكلم بلهجة الغضبان عليهم، هل أعطيتهم جارنا اليهودي؟ وظل يعنفهم على عدم إعطائهم الجار اليهودي، وهذه صورة من صور الإحسان إلى الجار غير المسلم، إعطاؤه أو إهداؤه شيئاً من الطعام. إن الإحسان لغير المسلم قد يكون بمعنى المواساة، إذا أصابته مصيبة فيواسيه فيها كأن يموت ابنه أو أبوه، فإنه يعزيه ولا يدعو له بالرحمة؛ لأنه لا يستحق الرحمة، أي: الرحمة في الآخرة. كذلك أيضاً أقل الإحسان للجار أن تكف أذاك عنه، وكذلك حسن العشرة، كذلك نصرته إن كان صاحب حق.. وهكذا. وكما أن الإخوة الملتزمين يتميزون في مظهرهم بإعفاء اللحية وبالقميص غير المسبل، وبالمحافظة على الشعائر الإسلامية كصلاة الجماعة وغيرها، فينبغي أيضاً أن يتميز المسلمون الملتزمون بحفظ الجوار، وذلك بأن يحسنوا إلى جيرانهم ولا يسيئوا إليهم، هذا أيضاً من الشعائر الإسلامية التي ينبغي أن يتميز بها الملتزمون بدينهم، وينبغي أيضاً أن يتذكر الإخوة الملتزمون حكم الجوار وحكم الإحسان إلى

جيرانهم. فالبر والإحسان إلى أهل الذمة ونحوهم والعطف عليهم، سواء كانوا أقارب أم أجانِب لا بد منه، ما لم يكن المحسن إليه منهم حريباً¹⁴.

البر والإحسان إلى غير المسلمين لا يعني مودتهم ونصرتهم

ولابد أن نستذكر هنا أمراً آخر: وهو أن الإحسان إليهم والبر بهم وأداء المعروف إليهم لا يعني بأي حال من الأحوال حبهم ولا مودتهم ولا موالاتهم، فهناك فرق شاسع بين ذلك وبين الإحسان وبذل المعروف لهم كما في قصة أم أسماء التي ذكرناها، وفيها الأمر بالصلة والإحسان، وهذا لا يؤدي إلى محبتهم أو موالاتهم التي نهي الله تبارك وتعالى عنها. فالمؤمن الحقيقي لا يمكن أن يحب كافراً، أما من كان يحب كافراً فذاك ضعف في إيمانه وآفة ومرض في قلبه، فالذي يجد في قلبه حباً للكافر ورضى عنه ومودة قلبية له، فهذا لابد أن يصحح إيمانه ويصحح إسلامه من جديد، فكل ما ذكرنا لا علاقة له بالمودة والمحبة والموالة. يقول الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل: لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ [الممتحنة:8] إلى آخر الآية. قال: وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين وجواز برهم، وإن كانت الموالة منقطعة عنهم. الموالة والنصرة والود والحب هذا للمؤمن فقط، لكن الكافر حتى وإن كان أباك أو أخاك أو أمك فهو ليس من أهلِكَ، كما قال عز وجل: يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ [هود:46] أو (إنه عمَلٌ غير صالح) كما في قراءة أخرى، فقوله: (ليس من أهلِكَ) ليس معناه كما يفهم بعض الناس أنه ولد زنا؛ لأنهم يربطون هذه الآية بقوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا [التحریم:10] كلا! لا يمكن أبداً لأزواج الأنبياء أن يخنن بالفسق والفجور، لا يمكن ذلك أبداً؛ لأن الأنبياء منزهون من أن يقع ذلك من زوجاتهم، كما قال عز وجل: وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ [النور:26] أي: الطيبات بالصفات الحميدة من العفة والطهر للطيبين. فالمقصود من خيانة زوجة لوط هو أنها كانت تدل قومها على ضيفانه، ومعونتهم على ما كانوا عليه من الحال الفاسدة أو الشرك والكفر، لكن لا يمكن أبداً أن يحصل الزنا من زوجة نبي؛ لأن هذا طعن في النبي نفسه، والله تعالى حفظ أنبياءه من أن تفجر نساؤهم بهذه الأفعال. والشاهد من الكلام أن ابن نوح هو ابنه من صلبه، وذلك لمن تأمل قوله عز وجل: فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي [هود:45] أي: من صليبي ومن عشيرتي، وقد وعدتني من قبل أنك

¹⁴ <http://www.anasalafy.com/play.php?catsmktba=55472>

ستنجيني وأهلي. فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ [هود:45-46]، فأهلك هم أهل الإيمان وأهل التقوى والإسلام، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ [هود:46]¹⁵.

¹⁵ <http://www.anasalafy.com/play.php?catsmktba=55472>